

## لا نستعيد الزمن بل ن صنع التاريخ ونعجبه من تراب الأمة\*

**وليد زيتوني**

يوم التأسيس، يومٌ انتفض فيه التاريخ على الزمن. يومٌ تغلت فيه الفكر وتمرد على سجان العقل. كان الحزب بيرقا، وكانت النهضة خضراً جديداً يصارع الغتتين.

نحن في الحزب السوري القومي الاجتماعي، لا نستعيد الزمن، إنما نصنع التاريخ، نعيجه من تراب الأمة، ودماء الشهداء للمؤمنين برؤ الوديعة.

من صدد إلى صفد، ومن كسب إلى النقب، ومن الأنبار إلى عكار، المعركة واحدة، والعدو واحد، والجريمة واحدة على الأمة وأبنائها.

إنه زمن التنتين الجديد الذي امتصّ دمانا، وحفر عميقاً في قيماننا ومثلنا العليا.

وينسق الوقت زمن البطولة المؤمنة المؤيدة بصحة العقيدة الساعية لقتل هذا التنتين.

كيف قرأ سعادته هذا الواقع؟ وما هي الحلول التي وضعها؟

شدت الحرب العالمية الأولى مرحلة ضياع الهوية القومية في منطقتنا، بانقافية احتفالية، أسمنتها سايبكس – بيكوب. اتفاقية وضعتنا على خط الاشتباك الاستراتيجي المحدد بجغرافيا الطوائف والملل والنحل.

غير أن النتائج التي رسمتها الاتفاقية، لم تكن وليدة ساعتها عام 1916، وإنما كان التحضير لها على قدم وساق من مديات بعيدة زمناً. ففي لحظة بروز الدولة القومية في القرن التاسع عشر لم تكن جاهزين ماديا ومعنويا لتلقف فكرة التحول العالمي الحاصل على المستوى السياسي.

وبالتالي لم تتلمس بعد، معنى ومضمون الهوية القومية لأسباب التالية:
أولا: وجودنا تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية التي كانت تعاني سكرات الموت نتيجة لأوضاعها الاقتصادية المتردية، وخسارتها العسكرية أمام القوى الاستعمارية آنذاك وخاصة تدمير أسطولها البحري في نافرين عام 1826. ومن ثم عدم استقرار أوضاعها الداخلية اثر انقلاب الثنائي القومي الطوراني على الخلافة العثمانية المتلبّسة باليوس الأيديولوجي الديني.

ثانيا: تدخل الدول الكبرى في المناطق التي تسيطر عليها الخلافة العثمانية تحت عناوين رعاية الأقليات الطائفية، ومن خلالها، ركّزت على المستشرقين والدلائين والإرساليات لضرب البنى الجيو ثقافية الموجودة، التي كانت تحتفظ لتاريخه بخصوصياتها القومية.

ثالثا: كانت المنطقة تعيش حالة اقتصادية مزرية كصحلة للجشع الإمبراطوري العثماني من جهة، وكنتيجة للهجمة البدوية الصحراوية التي قامت بها قبائل العنزّي القادمة من الجزيرة العربية من جهة أخرى، حيث فاقت بهمجيتها واتساعها ما فعله هولاكو. لقد دمّرت هذه الهجمة سيعة آلاف قرية وبلدة من حلب شمالا إلى صفد وحيفا ويافا جنوبا، فحرقت جميع المحاصيل الزراعية وقطعت الأشجار وتكثت بالسكان قتلاً وتهجيرا تحت الرعاية العثمانية، وانتظارالقناصل الأوروبيين.

رابعا: تردّى الوضع العلمي والثقافي ودخول المنطقة في مرحلة الانحطاط بسبب الممارسات الفعّية العثمانية وهجرة الكوادر العلمية، وتغلغل ثقافات تعلم متعارضة مع القيم السائدة، لم تستساغ، حينها، من قبل النخب المثقّبة.

خامسا: تحوّل عصبية الأمم إلى منظمة ضامنة لحقوق الدول الكبرى المنتصرة في الحرب، على حساب الدول والشعوب التي كانت تحت مظلة الدول المهزومة، حيث انتقلت هذه الشعوب من استثمار إلى استثمار آخر دون أن يكون لها أي دور في تقرير مصيرها.

**تمدّد المشاريع الجيوپوليتكية**

تحت مظلة هذا الواقع، وغياب الأطر السياسية والثقافية والاقتصادية المحلية الناضجة، تمددت المشاريع الجيوپوليتكية الإقليمية والدولية لتأمين مصالحها، اشتبكت وتشابكت على أرضنا وعلى حساب مصالحنا. فدخلنا في دوامة اشتباك دائم ما زال مستمرا حتى يومنا هذا،من خلال دوائر ثلاث.

دائرة ذاتية: تختلط فيها قواعد الصراع ما بين، وفي الهوية القومية، والهوية الدينية، والهوية المذهبية، والهوية الانتية، والهوية الاجتماعية (مدنية وعشائرية) والأنظمة السياسية والاقتصادية، والتشكيلات الكيانية التي أفرزتها «سايبكس- بيكوب».

دائرة إقليمية: تتنازع فيها مشاريع الدول الإقليمية التي وأيرت هويتها القومية وعملت على أساسها مثل تركيا وإيران، وتلك التي لم تتبلور هويتها وتتسعى إلى دور قيادي إقليمي «إسرائيل»، ومصر وادي النيل، والسعودية ممثلة للجزيرة العربية.

دائرة دولية: وقد تدرّج فيها الاشتباك تاريخياً، من صراع بين الإمبراطوريات القديمة، ثم بعد الحرب الأولى بين الدول الاستعمارية الحليفة الذي أنتج سايبكس-بيكوب، مروراً بالحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي السابق، وصولاً إلى اليوم بين الجيوپوليتك الإمبريكي المدعوم من أوروبا والحلف الأطلسي والجيوپوليتكي الروسي المتجدد المدعوم من الصين ودول «بركس».

في الواقع، لا يمكن الفصل بشكل كامل بين الدوائر الثلاث إلا لأسباب منهجية بغية توضيح ما يمكن تسميته بهوامش حرية الحركة المرسومة بدقة من قبل الدائرة الكبرى. حيث برزت إشكالية تقدّم نفسها على الشكل التالي: هل الاستعمار هو من أوجد المتناقضات التي تشتملها الدائرة الأولى؟ أم أن هذه المتناقضات النبوية هي التي استجلبت الاستعمار إلى بقعة صراعاتها؟ بمعنى آخر «ما الذي جلب على امتي هذا الويل؟» كما سأل انطون سعادة، واردفه بسؤال آخر «من نحن؟»

هنا نتبادر إلى الذهن، التسميات التي أطلقت على هذه المنطقة. من الشرق الأدنى إلى الشرق الأوسط الجديد والشرق الأوسط الكبير أو الموسع التي أنّ دلت على شيء فإنها تدل على مضمون المشروع الجيوپوليتكي واستهدافاته. هي تسميات جغرافية متعالية تؤكّد على مركزية الغرب وتبعيتها. وبالتالي ترسم حدودنا استناداً إلى خطوط أمنها القومي بالجيش الجراة والأساطيل المنتشرة في البحار المحيطة، والهيمنة السياسية والسيطرة الاقتصادية على برّنا.

وعليه... واستناداً إلى حقائق التاريخ والجغرافية والفكر العلمي الحديث سنستعيد تعبير «سورية الطبيعية» كاسم لهذه المنطقة، باعتبار هذا الاسم هو الأكثر التصاقاً بحضارة المنطقة وثقافتها.

لا شك، أنّ الاستعمار بكافة أشكاله، قد ركّز في المرحلة الأولى على تدمير البنى الثقافية الحضارية/الروحية باعتبارها جزءاً من العوامل المتغيّرة في تشكيل الأمة، ليستني له في مرحلة لاحقة، النفاذ من التشردم النفسي والثقافي لتقسيم الجغرافية بشكل يتناسب مع أهدافه أولاً، وثانياً كي يؤمّن هذا التقسيم بقاء الإقليم الجغرافي بعيدا عن امكانية التفكير باستعادة وحدته.

ان «سايبكس – بيكوب»، بما هي اتفاق توزيع نفوذ بين قوتين استعماريّتين، لحظت من خلال ترسيمها لسورية الطبيعية المسائل التالية:

- فصل مناطق الجذب الحضارية (ما بين النهرين، بلاد الشام).
- إضعاف العمق الاستراتيجي، لبنان بعمق 40 كلم،

## البناء

ويتعذر، بنفس الوقت، رسم النقاط المطلوبة للنهوض، دون قراءة فعلية متأنية لإستراتيجيات الآخرين الإقليمية والدولية، ومدى تأثيرها ومكامن الضعف والقوة فيها.

تعتبر الاستراتيجية بشكل عام نسقاً فكرياً مخزوناً في الذاكرة الجمعية لشعب ما، وهي بالتالي جامدة نسبياً لارتباطها بالعوامل الثابتة والثقافية لتشكل الأمة. فالواقع والمساحة والطوبوغرافيا، والثروة الطبيعية تماماً كما التطلعات العامة والمصالح هي من يقرّر أصول الاستراتيجية وجذورها التاريخية والحالية.

من الطبيعي ان يتغيّر منهج العمل الاستراتيجي تبعاً للإدارة وتبعاً للظروف الذاتية والموضوعة لأمة، فتتحقق عندما تكون الأمة قوية (عسكرياً، سياسياً، اقتصادياً، ثقافياً) وتتراجع إلى حدّ تصحح معها الاستراتيجية فكرة معيارية، حين تكون في حالة ضعف أمام الأمم الأخرى، أو في حال التشردم استناداً للعوامل الذاتية، فتسلب إرادتها وتفقّد سيادتها وتصبح عرضة لتداخل الإستراتيجيات الأخرى، وهذا في الواقع هو حال أمتنا منذ بداية ادراك معنى الأمة وظهور الدولة القومية الحديثة.

هنا تبرز مسألة الإدراك والفهم والتطيل، ومن ثم وضع الأولويات والخيارات على مستوى بناء القدرة الذاتية والعوائق الناتجة عن التدخل الخارجي على قاعدة عقلية بحثة، لأنّ العقل هو الشرع الأعلى، وهو بالتالي يحدّد الغايات والأساليب الواجب اتباعها للوصول إلى الأهداف المرسومة، شرط مرحلتها والعمل على إقامة التوازن بين الغايات الاستراتيجية والأهداف المرحلية من دون طغيان أو تعارض بين الغايات والأهداف مصحوبة بتوفر الإرادة السياسية.

تَكَاد لا توجد طريقة علمية أخرى للخروج من مأزقنا، رغم أنّ العوائق الداخلية كثيرة ومشعبة ومعقدة لدرجة تدفع البعض إلى اليأس. غير أنّ وجود مشروع بنياني مستهدف وأضح المعالم يبعث إلى الأمل ويشدّد الهمم، خاصة أنّ شعبنا يتمتع دينيamente عالية، وقدرة أقرب ما تكون إلى المثابرة على العمل والمثابرة لإنجاز ما يمكن تصوّره ووضعه موضع التنفيذ.

**المكعبّات البلغارية لا الشطرنج**

إنّ العالم لم يعد لعبة شطرنج محصورة بين الأسود والأبيض، كما كانت خلال الحرب الباردة وبين قوتين اساسيين فقط، بل تحوّل إلى لعبة أخرى، بما يمكن تسميته بالمكعبات البلغارية، ذات الأبعاد والألوان الستة، تلزم لاعبيها ان يداخل بين الأبعاد والألوان لتحقيق الانسجام المطلوب والتوازن بين البعد واللون.

لقد وضع سعادة ثمانية مبادئ أساسية، وجهد ألا يترك مجالاً للشك في صوابيتها التاريخية والجغرافية والعلمية. غير أنّ سعادته نفسه اعتبر لأجل استتباب كمال المبادئ، وجوب وضع استراتيجية شاملة، حدّد أهدافها بالمبادئ الإصلاحية وغاية الحزب، شارحا الأسباب الكفيلة بتحقيق هذه المبادئ كشرط أساس لإقامة الدولة القومية التي هي بالضرورة دولة حديثة مدنية ديمقراطية. وللتأكيد على هذا الهدف اعتبر الحزب، وهو أداة تحقيق البعث القومي والنهضة القومية الاجتماعية، اعتبره دولة الأمة السورية المصغّرة، مرسياً أساسه الدستوري وقوانينه الناضجة. حيث قال إنّ وضعي للدستور هو أهمّ أعماله بعد وضعي للعقيدة. شاملا بالدستور كل المؤسسات الرئيسة والفرعية كمنأماج لممارسة السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، فاصلا بين السلطات في إطار تكاملي، معتبرا أنّ النظام التسلسلي المركزي وقف على المؤسس صاحب الدعوة، لانتظام العمل في مرحلة التأسيس.

سنستخمّ ما تقدم أنّ سعادته أرسى الاستراتيجية الشاملة لقيام النهضة، لكن لم يتسنّ له استكمال التخطيط وتنفيذ

## دراسات/ آراء 13

الإستراتيجيات المرحلية نتيجية لملاحقة المتكرّرة من قبل الإنتداب الفرنسي ومن ثم لفتحها العسكري بعد التأسيس. وعند عودته من المغرب عام 1947، كانت القيادة المولجة شؤون الحزب في الوطن قد وقعت في احرافات عقائدية وشخصانية أوجبت إقصاءها (سُخّي اتجاه هذا النهج، جماعة الواقع البناني)، تسارعت الأحداث بعد هذا التاريخ، وخاصة قرار تقسيم فلسطين، حيث دفعت الأحداث بسعادته إلى إعلان التعمية العامة في الحزب، وإقامة التنظيمات العسكرية الملائمة للاشترك في الحرب (فرق، جرائد وزعم). غير أنّ مقولة «لإسلاح للقوميين» التي أطلقها رياض الصلح آنذاك، لاقت أذاناً صاغية عند كل حكام الذين حجبوا السلاح عن الحزب، الذي أضمر بدوره على الانخراط في الحرب بما يتيسر من امكانيات. غير أنّ رياض الصلح وشريكه في الحكم بشارة الخوري لم يكتفيا بذلك، وإنما خططا للتخلص من سعادته وحزبه إلى أن قامت الثورة القومية الاجتماعية التي أسماها سعادته نفسه بالاولى. ولعل بيان الثورة الأولى هو منهجاً فعلي يقاس على في كيفية وضع الإستراتيجية المرحلية من دون التعارض مع الإستراتيجية الشاملة.

**وسائل سعادته الإستراتيجية**

اعتمد سعادته في سياق عمله لتحقيق أهدافه الإستراتيجية، على اقفونيين اثنين: أولاً الوعي المستند إلى العقل كتشريح أعلى، وقد ظهر جلياً في الوعي الثقافي، حيث وضع التشريعات من الكتب والمقالات والمحاضرات والخطب دافع فيها عن الحق القومي، مبنياً الأساس الحضاري والعلمي لوجود الأمة السورية (نشوء الأمم، الإسلام في رسالته، المحاضرات العشر، الصراع الفكري في الأدب السوري الخ...) كما ظهر في الوعي من خلال الإدراك السياسي، حيث استطاع ان يكشف مكرراً أهداف المشاريع الاستمدارية المرسومة للمنطقة، وعلى الأخصّ المشروع الصهيوني وربيبته الحركة الوهابية.

وقد اعتير سعادته أول من نبّه إلى خطورة الهجرة اليهودية إلى فلسطين عام 1925. حيث وصف الصهيونية بأنها خطة منظمة ودقيقة ولا يمكن محاربتها إلا بخطة معاكسة نظامية وبدقيقة. كما أدرك أهمية الإعلام في نشر الوعي والمعرفة وهو ما حفّزه إلى إنشاء الجرائد اليومية (الجريدة، سورية الجديدة، النهضة الخ...)

القوم الغائني هو القوة المنظمة، ولم يطلب سعادته الإجابة على سؤاله «ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟» من أجل المعرفة العلمية فحسب، وإنما كان يريد إيجاد الوسيلة الناجعة لرؤ هذا الويل.

إن عصر تنازع الأمم البقاء، عصر أفعال لا أقوال، وإذا كان لا بدّ من القول فيجب أن يكون مدعوما بالقوة العملية ليكون من وراء هذا القول نفعاً ونتيجة واقعية. وأردف قائلاً: نحن أمة وافقة الآنّ بين الحياة والموت، ومصيرها متعلق بالخطة التي نرسمها لأنفسنا واتجاه الذي نعيّنه.

الحق لا يكون حقاً في معترك الحياة إلا بمقدار ما تدعمه القوة. وإنّ القوة هي القول الفصل في إحقاق الحق القومي او إنكاره.

وبناء عليه، أضمرّ سعادته في رسم إستراتيجيته الشاملة (الدولة القومية)، على إنشاء جيش قوي يكون ذا وزن في الدفاع عن الأمة السورية وحققاً في الوجود.

أخيراً... لا بدّ في هذه الأيام الصعبة والعصيبة من اتباع النهج الذي أرساه سعادته طريقاً وحيداً لخلصنا وخلص أمتنا

ان ننظم من جديد قوة الثقافة، وثقافة القوة المنظمة.

\* محاضرة ألقاها عضو المجلس الأعلى في الحزب السوري القومي الاجتماعي وليد زيتوني في الندوة التي أقامتها مديرية عدل في مناسبة العيد ال83لتأسيس الحزب.



## جيش نبوخذ نصر... وحكومة ماري أنطوانيت

■ **توما عباس**

لا يستطيع أيّ منا عند ذكر الجيش العربي السوري إلا الخشوع له... جميع الذكريات المرتبطة بأفراد هذا الجيش تجعلنا نتذكّر مدى التضحيات والشهداء والحضار والجوع والخطف والذبح والقتل الذي تعرّضوا له... ما مرّ على هذا الجيش لا يمكن أبداً أن يمرّ على غيره من الجيوش، فكلّ الجيوش حاربت جيوشاً إلا الجيش السوري حارب ما هو أكبر من هذا... مرتزقة وقتلة وإرهابيين وتمويل من عشرات الدول وحرب عصابات وشوارع... حرب إعلامية وانشقاقات وضغوط نفسية ولعب على أوتار الطائفية... هذا الجيش الذي يفوق بالتصوّر جيش نبوخذ نصر الذي كتبت عنه الروايات والأساطير القديمة...

جيشنا البطل الذي دافع عن كلّ شبر حارب في أقصى الظروف وعلى مساحة واسعة وحدود شاسعة، مجرمين من درجة الإرهاب لا قلب لهم ولا رحمة... أفراد جيش سقطوا دون الوطن فارتقوا منارات تعلم الكون بأسره كيف يكون الوفاء للوطن وكيف تكتب الأساطير وترسم الأيقونات وتتزلّ الأسفار وتنظم المعلقات...

وعند ذكر الجيش وشهداء الجيش لا بدّ للذاكرة من أن تعرّج على أهل هؤلاء الأبرار، أمهاتهم وآبائهم وأطفالهم وزوجاتهم أو حتى حبيباتهم وكلّ ما يمتّ لهم بصلة، صبرهم وجلدهم... كم من أهل شهيد دخل المعزورون عليهم فوجدوا العزاء فيهم؟ كم من أمّ صرخت ولدي فداء للوطن؟ وكم من أطفال قالوا سنكمل المسير... شعبي العظيم... شعبي المقاوم... شعبي الرائع...

وعند ذكر الجيش والشهيد والشعب والوطن وشجون الوطن وآلام الوطن يجب أن نعرّج على حكومة الوطن الكريمة، الراعي الرسمي للقبّة الشعب ولبيرة الشعب، واقتصاد الوطن، وهنا تبدأ الشجون الحقيقية... رحم الله ماري أنطوانيت ملكة فرنسا سابقاً، لربما شاعت الأقدار ملكة الملكة أن ترحم مراراً وتكراراً منذ الحرب على سورية حتى الآن... لأنني كلما سمعت تصريحا أو تصريحاً لمسؤول من درجة رئيس وزراء إلى وزير إلى مدير عام إلى موظف أتّرحم على تلك الملكة وأقول: ربما كانت جاهلة لا تعلم أنّ «البيسكويات» الذي طلبت من أبناء شعبنا تناوله في حال لم يجدوا كسرة خبز واحدة هو أعلى بالف مرة من الخبز، وإنّ بلاطها وقصور نيلاتها هم وحدهم من يملكون ثمنه، فأجد لها عدراً وأحزن لغائبها الشهيد... لكن عندما يخبرني في بلدي مسؤول كان منذ أيام من عمارة الشعب بأنّ عليّ أن أتناول الزيت والزعتر



وزارة التموين والتجارة الداخلية إلا في ما يتعلّق بالتصريحات الهزلية ودوريات التموين التي تمزّ لجباية المعلوم متجاهلة الأسعار وجنون الأسعار وفقدان الأكية الحقيقية للتسعير... ووزارة البيئة التي وزيرها أصابه الملل من الكلمات المقاطعة وتحول إلى السدودكي على الرغم من الكوارث البيئية التي تحدث من جراء الكيماوي وتراكم الزبالة وتدني ثقافة الفرد البيئية... إلى آخره من الوزراء التي أصبحت مجرد تسميات بدون برامج وإعلام ومحاولات لدرد الأخطار ولو نسبياً عن المجتمع. قلن يكون من المناسب أن نترك ملا وزارة الكهرباء التي تتلقى الصدارة في رفغ الضغط فمثلاً سيدي وزير

الكهرباء لا اعتراض على حكم الله وعلى قلة موارد الوزارة من الفيول بأتواعه ولا على التخريب المتعمّد لمحطات الكهرباء من قبل المسلحين، لكن كان أضعف الإيمان هو الالتزام بمواعيد القطع والإعلان عن المواعيد الجديدة على المحطات التلفزيونية والراديو ومواقع التواصل الإجتماعي، فقد أصبحنا كالأطرش بالزفة وتفاجكنا الكهرباء على حين غرة بانها اقطعت بمعدل أربع لحمس قطعلت في الساعة، معرّضة المواطن والأجهزة الكهربائية لديه للانفجار... السيد وزير الصحة ما أخبار الأدوية وأسعار الأدوية والطرق التي تصل بها الأدوية كم صرفنا نحتاج لقرص دواء للانتحار على فرض أنّ المادة الفعّالة